المبحث 6
واستعماله العارم
بقلم
المعاضر/ سالم بن إبراهيم العطيم
كلية الشريعة والدراسات الدينية

8 مجله كلية الشريعة - بالقصيم
في الأحوال السياسية والاجتماعية والعلمية في عصره

لقد عاش الحافظ ابن كثير في غضون الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع الهجري، في ظل دولة الجيليك، التي كانت تحكم مصر والشام، حيث كان الحاكم يقيم في مصر وي ispبي عليه حاكمًا في الشام. وقد كانت هذه الفترة تعدًا لأحداث عظيمة ونكبات شديدة مرت على العالم الإسلامي، منها الحروب الصليبية التي ظلت طيلة مائتي سنة وذلك من سنة 990 هـ وحتى سنة 1090 هـ.

ومنها الحادث الأليم الذي زلزل كيان العالم الإسلامي، وهو هجوم التتار على البلاد الإسلامية، وسقوط بغداد في أيديهم سنة 656 هـ، والقضاء على الخلافة الإسلامية، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وإراقة الدماء البريتة، وقتل الفقهاء والأعيان، واستمرار القتل والنهب والسبب في بغداد بضعة وثلاثين يومًا، وقد ذهب ضحية هذا الحادث كثير من الأرواح والأموال.

ومنها القناع بين السلاطين على السلطة، مما سبب خلع الكثير منهم وقتلهم أو اعتقالهم. فلا يكاد يصل الواحد منهم إلى السلطة حتى تخضع له كل هذه الأخطار.

وقد كان للخلافات المذهبية بين أهل السنة والجماعة سبب في هذا الاضطراب السياسي.

وقد أدى اضطراب الأحوال السياسية إلى سوء الحالة الإجتماعية، فحصل كثير من المجاعات بسبب الاحتكار وعدم استقرار الحياة، كما أدى ذلك إلى انتشار كثير من الأوبئة وكثرة الوفيات.

مع ما كانت عليه هذه الفترة من اضطراب الأحوال السياسية، وتدهور الأحوال الإجتماعية، فقد سادها نشاط علمي كبير، وقد تمثل هذا النشاط بكثرة دور التعليم الذي شملت كثيرًا من المساجد والمدارس والخوارق في مصر والشام، وبكثرة المؤلفات في سائر العلم، وعدد
المجتهدين والحافظ الذين بروزا في كثير من العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ المزاي والذهبى والعلامة ابن القيم والحافظ ابن كثير وغيرهم. وقد امتازت هذه الفترة بحرية الفكر والبحث العلمى، وبالقيمة الفريدة والمجلة العالية التي يحتلها العلماء بين العامة والخاصة على حد سواء. وكان جل اهتمام العلماء في هذا العصر الانصراز إلى الإفادة من كتب الأقدمين، ودراستها وتدقيق أحاديثها وختصاراتها والمفاصلة والمواقعة بينها. يغنى أن اهتمامهم منصرف في الغالب إلى التفسير والتراجم دون الابتكار والتجديد، وهو منصرف أيضا في الغالب إلى علم الدين واللغة، وقد كان طبيعيا أن تنصرف دراسة المحافظ ابن كثير إلى هذه العلم، وأن تكون وفق ما كان معهدا في عصره، وهو دراسة كتب الأقدمين وتدفها، لكن من يقرأ في كتب المحافظ ابن كثير في التفسير والحديث والتاريخ والفقه وغير ذلك يجد أنه صاحب مبدأ وعقيدة ينسى بها ويعدّ إليها ويدافع عنها. كما أن صاحب هتاف واضح تجلى في جميع مؤلفاته.

نسبه ومولده ونشأته:

هو الإمام المحافظ المحدث المؤرخ المفسر الفقيه ذو الفضائل عاد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البيسى. القرنى النصري، البصري الوليد - رحمه الله - بقرية (شطبة) من أعمال مدينة (مصرى) - بلدة بالشام من أعمال دمشق - وكان أبوه من أهل (بصري) وأمه من قرية (مجبيل).

وختلف المرجعون في سنة مولده، وكل هذه الأقوال تتوافق بين سنة سبعة ٧٠٠ هـ وإحدى سبعة ٧٠١ هـ، قال الزهبي: (ولد بعد السبعين أو فيها) وقال الحنبلى: وله سنة ٧٠١ هـ. وقال ابن حجر: (ولد سنة ٧٠٠ هـ أو بعدها نجس) وقال السيوطي: (ولد سنة ٧٠٠ هـ).

قال الشيخ أحمد شاكر - بعدما أشار إلى قول المحافظ ابن حجر المتنبم: (هو تاريخ تقريبى أرجح أن مستبت من كلامه في ترجمة أبيه، حيث ذكر أن آية توية سنة ٧٣٣ هـ قال: وكتب إذ ذاك صغيرة ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدرك إلا كالمحلم، ثم قال: وابن ثلاث سنين

١٣٢ -
لا يعرف تاريخ السين - على اليقين - في تلك السن، فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبويه من حوله من أخوه أو أهل أو جيران، ولكنه يذكر أبيه «كالحلام» فالمذي هو في سن أفل من الثلاث ما أظهره يذكر شيئاً كالحلام ولا بعده من الحلما ولا أقرب، فهو حين موت أبيه قد حاور الثالثة في أكبر ظن - ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٢٠٠٠ هـ، أو قبلها بقليل، وهو أقرب إلى الصحة من قول الحاكم ابن حجر أربعة بعدها بقليل لأن الذي بعده لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه.

حياته العلمية

طلبه العلم وشيوعه:

كانت دراسة الحافظ ابن كثير - رحمه الله - متجهة كأشرت سابقاً إلى علم الدين واللغة العربية، حيث كانت هذه هي الوجهة العامة في عصره. وقد بدأ في الاحتكاك بالعلم على يدي أخيه عبد الوهاب - واجتهد في تحصيل العلم على كبار العلماء في عصره، وقد حذف القرآن في سن مبكرة، كما ذكر ذلك في تاريخه حيث قال في ذكره وفاة الشيخ ثور الدين على بن أبي الهيجاء الكراكي الشوفي قلب: "كان معنا في القراء والكتاب، وتحتتم أنا وهو في سنة إحدى عشرة.

وقرأ بالقراءات حتى اعتبره الدوائي من القراء فترجم له في طبقات القراء.

سمع صحيح مسلم في سنة مجلس بقراءة محمد بن محمد بن سهل بن محمد الأردي الفراني الأندلسي المتوفى سنة ٢٠٠٠ هـ على الشيخ نجم الدين بن العقلاني، وسمع الموت وفبره، وقرأ "تهذيب الكمال" للعزى في تاريخ الرجال، وحفظ "التنبئ" للشيرازي، في فروع الفقه الشافعي، و"كتاب ابن الحاجب" في الأصول، وبرع في الحديث والفسر والتاريخ والفقه والأصول واللغة، ودرس الحساب، وقد منحه الله حافظة قوية وفهما تأقفا وعلما جما واطلاعًا واسعاشهد له بذلك شيوخه وتلاميذه.

وفياً بلي بيان لبعض شيوخه الذين استنهر أخذه عنهم وتأثر بهم:
منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفي سنة 728 هـ، وقد لازمه وتخرج على يديه، وكانت له خصوصية ومناولة عليه، وانبعاث له في كثير من أرائه، وقد تأثر به وكان يغنى برأيه في مسألة الطلاق وامتنع بسبب ذلك وأرده، ويعتبر صاحبه في الروح والعقيدة والمذهب السلفي، وقد استفاد كثيرا منه ومن آثاره في جميع مؤلفاته وخصوصا التفسير.

ومهم: ابن الدواليبي البغدادي عفيف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالمحسن الحنابلي، له إجازات عالية. قال الحافظ ابن كثير: «وفد أجازني فيمن أجاز من مشايخ بغداد وله الحمد» نزى سنة 728.

ومهم: الشيخ المغفي برهان الدين أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ تاج الدين الغزاري، النصير باب الفراق، المتوفي سنة 729 هـ وقد نفقه عليه، وسمع عليه صحيح مسلم وغيره كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في ترجمه، وقد أتى عليه أيضاً فقال قبل نهاية الكلام عنه: «واجعله في قل أشياعنا مثله وكان حسن النسل على البناء والبناء والوفاق».

ومهم: شيخه الكبير: أحمد بن أبي طالب المعمر الرحلة شهاب الدين الحجاج أبو العباس المعروف بابن الشن مشاعر سنة 730 هـ، قال في ترحجه: «سمعنا عليه بدأ الحديث الأخرى في أيام الشناتي نحن من خصائص جزء بالأجازات والسباع».

ومهم: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ السالح العابد شرف الدين أبو الحسن بن حسين بن غيلان البعلبي الحنبلي المتوفي سنة 730 هـ قال: «وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشرة وسبعينة».

ومهم: شيخه الحافظ الكبير، أبو المجاج جمال الدين يوسف المزوي المتوفي سنة 742 هـ صاحب "تذيب الكمال" وأطراف الكتب السنة وقد لازمه وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال "تذيب الكمال" وقد تزوج ابنه زينب، كما ذكر ذلك في تاريخه.

ومهم: شيخه الحافظ المؤرخ أبو عبدالله شمس الدين الذي في، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايين، المتوفي سنة 748 هـ فقد قرأ عليه، ونقل شيمان من كلامه على بعض الأحاديث في التفسير، كما نقل عنه في كتابه "البداية والنهائية". وفي علم الحديث وفي كثير من مؤلفاته.
تأثره بهم:
أما تأثر بهم ففيبدو واضحا تماما، خصوصا من لازهم وأعدهم. فقد تأثر بشيخه ابن تيمية في عقيدته السلفية، وأرائه المستقلة وشخصيته الواضحة.

كما تأثر بالحافظين المزاي والذهبي وغيرهما من شيوخه في الحديث. حيث غلب الحديث وعلمه على نفقاته. فمع أنه أشهر في التفسير والتاريخ والفقه والأصول وغير ذلك، فإن شهرته في هذه العلم ترجع غالبا إلى بروزه في نقد الآباء وثمن الأولاد والآخرين وتحقيق القراء فيها صحة وضعة. مما جعل مؤلفاته تخطى بالدرجة الأولى بين سائر المؤلفات.

بيان المدارس التي تولاها وذكر أشهر تلاميذه:

لقد شارك الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في الحياة الإجتماعية، وكان مرجايا في الفتوى لدى السلاطين، ولدى خاصة الناس وعامتهم لديه وعصره وعلمهم وتواضعه. وقد تولى التدريس في عدة مدارس من أشهرها:

المدرسة النججية - هذه المدرسة بناها الأمير الكبير أوقس النججي وهي مدرسة للفقه الشافعي. وقد أسندت إليه سنة 736 هـ.

تربة أم الصالح: وهي دار حديث وقرأها تولي التدريس فيها بعد موته شيخه الحافظ الذهبي.

مدرسة دار الحديث الأشرفية: وهي كبيرة مدارس الحديث بدمشق، بناها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل. افتتحت ليلة النصف من شعبان سنة 730 هـ وقد تولاها بعد موته تقي الدين السبكي ولم يستمر بها طويلا.

التكرسية: وهي دار حديث وقرأها بناها الأمير سيف الدين تكرز ناب النمام. وقد بدأ

ببئتها سنة 728 هـ، وقد تولاها بعد موته شيخه الذهبي أيضا.

وهو أول من خطب بجامع الأوقاف سنة 748 هـ، وله درس تفسير بالجامع الأموي.

ونظرا لعدد المناصب التعليمية التي تولاها الحافظ ابن كثير فانه ليس من السهل حصر تلاميذه.

- 135 -
 الذين تلقوا علومهم عليه، وأكتشفى بذكر المشهورين منهم، مهم كا يلي:

- أبو الحاسان الدمشقي الشريف محمد بن علي بن الحسن بن حمزه بن أبي المحاسن الدمشقي، وهو المشهور بالحسيني. ولد سنة 715 هـ. وتوفي سنة 775 هـ.

- الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن يهادر الزركشي، وقد تلمذ للحاكم ابن كثير، وتلقى عنه الحديث بالدمشق، وهو صاحب كتاب "البرهان في علوم القرآن"، ولد سنة 745 هـ وتوفي سنة 794 هـ.

- أبو جعفر بن عفقة البشري، حلب عن ابن كثير وعن غيره، وتوفي سنة 804 هـ.

- سعد الدين سعد بن يوسف بن سبايل النوروي الشافعي، أخذ عنه وقرأ عليه في علم الحديث، وتوفي سنة 805 هـ.

- الحافظ الكبير زين الدين العراقي عبدالرحمن بن الحسين بن عبدالرحمن الكردي، الشهير بال العراق الشافعي، ولد سنة 725 هـ. وقد شهد له بالفضل والعرفة كثير من العلماء منهم ابن كثير، وتوفي سنة 806 هـ.

- شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي المعروف بالسلاوي الشافعي، سمع من ابن كثير وابن رافع وغيرهم. وتوفي سنة 812 هـ.

- العلامة أحمد بن علي الدين بن حجي بن موسي بن أحمد الدمشقي الشافعي الحافظ، مؤرخ الإسلام، تخرج على الحافظ ابن كثير وابن رافع في علم الحديث. وقد لازم الحافظ ابن كثير ست سنين واستفاد منه الكثير، وله عدة مؤلفات منها ذيل على تاريخ ابن كثير، وتوفي سنة 818 هـ.

- أبو زرعة العراقي أحمد بن عبدالرحمن العراقي الشافعي، ولد سنة 722 هـ. وتوفي سنة 822 هـ.

- ابن الجزري المقرري: محمد بن محمد بن علي بن يوسف، المعروف بابن الجزري، الشافعي، ولد سنة 751 هـ وسما من كثير من العلماء منهم ابن كثير، وتوفي سنة 833 هـ.

- 136
مذهب في العقيدة

يعتبر الحافظ ابن كثير سلفي العقيدة، يظهر ذلك من خلال مسكه بعثة السلف وتقريره لها في مؤلفاته، وخصوصا التفسير، حيث نجد أنه في تفسيره لآيات النزول والاسراء والصفات يقرر أصول العقيدة الإسلامية السنة. كما هو معتمد أهل السنة والسلف الصالح، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبنا ورسله والمبعوث الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره،

وبهذ إن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده وانفراده بالربوبية والعبودية، وانصافه بالكامل المطلق من جميع الوجوه فقد قرر الحافظ ابن كثير هذا كله كله في كلامه عن الآيات المتعلقة بالتوحيد وأواعه، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

كما قرر عقيدة السلف بوجوب الإيمان بجميع الأمور القيمة التي أنكرها القرآن والسنة كوجود النار وعذاب القبر ونبوءة الأيام واليوم لبرهم يوم القبامة، وغير ذلك مما يجيب الإيمان به من أمور الغيب.

وكما قرر عقيدة السلف فقد ذهب ودافع عنها، وذاذ عن حيامها، ورد على طوائف البديع والضلزل من الدهرين والشركاء والمغفلة والشيعة والاذكار وغيرهم.

وهو كله يدل على sexe تمسكه بعثة السلف الصالح ضمان الله عليهم، إيمانا بها ودافع عنها ورد على مقابلتها، وتفسيره من أوله إلى آخره، أكبر شاهد على هذا، بل إن جميع مؤلفاته تعطي لنا دلالة واضحة على هذه الروح الإسلامية الخالصة من وجوه البديع والانحرافات، ولا غر في هذا ولا عجب إذا عرفنا أنه تحمل تربية الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في سبيل من معين عليه وتأثر به في الحق، والدين واستقلال الشخصية وفي صفاة العقيدة وسلامتها، حيث كان شيخه له الفضل الأول بين علماء الإسلام في إيضاح عقيدة السلف والتمسك بها، والذب عنها، والذنود عن حيامها، ورد على طوائف البديع والانحرافات، ورغمهم من الفرق الضالة، حيث كان شيخه لهذه المتابة، فقد جاء منبسطاً لآتائه، مرسياً خطاها في ذلك كله فوضع طريقة السلف، وذب عنها، ورد على مختلفها، فكان خير خلف لخير سلف - رحمها الله - شيخاً وتميزاً، وأسكتهما بحبه جنته أمين.
مذهب الفقهية وشخصيته المستقلة

لم يكن الحافظ ابن كثير من العلماء الأئمّة المقدّسين، وإنما كان ذا شخصية مستقلة، ومن العلماء المجتهدين الذين ينظرون في الأدلة ويعتبرون من الأقوال ما ترجحه تلك الأدلة، فهو رحمه الله -ما أوفق من علم جم، وثقافة واسعة، واطلاع عظيم في شتى علوم الشرعية بدور مع الدليل حيث كان.

كما كانت طريقة شيخة شيخ الإسلام ابنة تيمية وابن القيم فهو لا يحتسب لذهب من المذاهب أو غيره، فمع أنه شافعي المذهب تراه كأسي ي ينبغي في مسألة الطلاق الثلاث بلغة واحد، كما هو رأى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وقد انتهى الحافظ ابن كثير بسبب ذلك وأوذي، فثبت على قوله وصر على ما بلى في سبيل الله. وهو وإن كان يتعطى مذهب الشافعي اهتماماً كبيراً في تفسيره، فقد اهتم غيره من المذاهب وخصوصاً المذهب الثلاثة، وليس أول على إنسقائه لجميع المذاهب وعدم تعصب من كونه قد يختلف الشافعية، ويرجح قول غيره، كما يبدو ذلك في تفسيره.

كرم خلقه وعدله

لقد كان الحافظ ابن كثير على مكانة عالية من سمو الأخلال وجليل الصفات، وكان موضوع التقدير والإعجاب عند شيوخه ويلامدته وغيّرهم من خاصة الناس وعامتهم، والذي يقرأ في مؤلفاته ويطلق على علاماته مع عناصره بعيد أكبر شاهد على هذا، ومست في معرض الكلام عن تلك الصفات، فذلك مما قد يطول، وإنما سأذكر بعض النواحي التي تدل على كرم أخلاقه وانضباطه وعدله.

فمن ذلك موقفه من المحبة التي لحقت قضى الفضاء السبكي، مع علمه ومعرفته بما كان بين شيخه ابن تيمية ونفي الدين السبكي، حيث كتب عليه توقيفاً لتهويه، وداروا بها على المفتي، قال ابن كثير: «وسميت في الافتاء عليها قامعتها لما فيها من التشويش على الحكام.»

ثم قال: وكانوا له في نية عجيبة ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية.

وقال أيضاً: «ومنذ عقد مجلس بسب يرنى بقضى الفضاء السبكي وكب فيه.

- 138 -
محضران أحدهما له والآخر عليه. وفي المحضر الذي كتب له قال ابن كثير: "فهي خطوط جماعات من المذاهبين البالغة عليه، وفيه خطى بأنه مارأيت فيه إلا خيرًا". كما ذكر أيضاً أنه من أشعار بالصلح بين الشيخ السبكي وخصه.

ومما يدل على كرم خلقه أيضاً وانصافه للروي العدل والحق حتى مع غير المسلمين، قال في تاريخه "البداية والنهبة" في أحداث سنة 727 هـ بعدما ذكر غدر الأفونج بعنة الإسكندرية، وما عانوه فيها من الفساد:

وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم، لعارة ما خرب من الإسكندرية ولعارة مراكب تغزو الأفونج، فأهازي النصارى وطلبوا من بيوتهم، وخصصوا أن يقلعوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتادها شرعاً ثم قال: "وقد طلبنا يوم السبت - السادس عشر من صفر - إلى الميدان الأخير، للاجتياع بنائب السلطنة، وكان اجتياعا بعد العصر يومذا، بعد الفراع من لعب الكرة، فأوئيت منه أنفا كبيرا، ورأيت كاملاً الفهم حسن العبارة، كريم المجالسة، فذكرت له: أن هذا لا يجوز اعتاداه في النصارى، فقال:

أن بعض قلقها، مصر أموت لأمير بذلك، فقدت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يقتي بهذا، وتمت كانا باقيين على الدمة يؤدون الجزية ملتمسين بالذلة والصغار، وأحكام الملكة قاتمة، لا يجوز أن يأخذ منهم الدهم الواحد الفرد فوق ما يلزمهم من الجزية، وقل هذا لا يحقق على الأمير..."

قال الأستاذ أحمد شاكر تعليقاً على هذا الموقف العادل للحافظ ابن كثير - رحمه الله - فاضل إلى هذا الإمام العظيم الذي يقف عند حدود الشريعة المطهرة، يقيم دين الإسلام الصحيح كما عرفه من دينه الجعيف، ولأجل ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة طالبة، من أمواء طغاة جارئين، كما ألم واسترجع من قبل ما أصاب المسلمين من غدر النصارى وفهمهم، وشأن هذا لا يرضى إلا أن يقيم دين الإسلام العدل، فكان هذا العظيم المستقل العظم الفاتح على الحق، والذي لا تغلبه العواطف والأهواء مما يجعل للمرجل منزلة عند الناس كبيرة ينفه أنصاره ومعافقوه ومخالفون، بل جعله موضع النفوذ والاستشارة عند الذهنيين، حتى
يشده بعض رؤسائهم في أخص شؤونهم الكبرى». ثم ذكر استضاعة البرك بشارة الملقب
ميخائيل لابن كثير في بعض عقائده النيازية.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

لقد أحتل الحافظ ابن كثير منزلة عالية في الحديث وعلومه، والتفسير والتاريخ والفقه
واللغوي وغير ذلك، وكانت له الكمالية الرفيعة في حياته بين تلاميذه ومعاصريه. وقد خذل هذه
القمة بما تركه للمكتبة الإسلامية من مؤلفات حملت ذكره خالداً بعد وفاته.

وأما يدل على شهرته، وقيمه العلمية، وانتشار مؤلفاته، وانتشارها في حياته، ما ذكره في
تاريخه «البداية والنهاية»: «أن شاباً أعجباً حضر من بلاد تيريز وخراسان يزعم أنه يحفظ
البيخاري ومسلم وجامع المسند والكتاب للبيخاري وغير ذلك. وأنه اندى بقراءة جامع
من البيخاري وغيره ببصرة - قاضي القضاة - وجماعه من الفضلاء، ثم قال: وفرج كتابتي له
بالسياح على الإجازة، وقال: أنا ما خرجت من بلادنا إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزي، وذكر
في بلادنا مشهور.

فهذا يدل على اهتمام العلماء وطلاب العلم بمؤلفاته في حياته وقبل إتمام تأليفها، لأن الظاهر
حسب ما وصل إليها من أجزاء هذا الكتاب «جامع المسند» أنه لم يتم تأليفه، ومع ذلك وصل
ما نسخ من هذا الكتاب إلى أقصى الشرق في تيريز وخراسان.

وقد أنتهى عليه كثير من العلماء.

قال فيه ابن حبيب «امام ذو الفقار، ونيردام الخليل، وزميم أرباب التأويل، سمع وجمع
وصنف، وأطرب الأسباع بالقوت، ونشف، وحدث وأفاد وطارت نشاوته إلى البلاد، وانتشار
بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث ولفسفي.

وقال شيخه الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: «سمعنا بالفقيه الغني المحدث ذي
الفضائل عاد الدين ابن إسحاق بن عمر بن كثير البصري الشافعي له عناية بالرجال والمغرب
والفقه، آخر وناظر صنف وفهر وتقسيمة.

- ١٤٠ -
 وقال في: «المعجم المختص»: «الأمام المفتي المحدث البارع، فقيه متقن، محدث متقن، مفسر نقال، وله صناعات مفيدة».

وقال تلميذه الحافظ أبو المحسن الحسيني: "أنهى ودرس وناظر وبرع في الفقه والентفسير والنظر، وأعان النظر في الرجال والعللم.

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي: "كان أحفظ من أدركنا لمثل الأحاديث، وأعرفهم بتخريجه ورجاله وصحيحها وسقيها، وكان أقره وشبوه يتوفرون له بذلك. وكان يستحضر كثيرا في التفسير والتاريخ، فقيل الناس، وكان فقيه جيد الفهم، صحيح الذهين، يحفظ النسبية إلى آخر وقت، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر، وما أعرف أي اجتمعت به على كهنة تركتي إليه، إلا استقدمت منه ولزمه سنتين.

وقال الحافظ العلماء ابن ناصر الدين المتوفي سنة 842 هـ:

"الشيخ العلماء الحافظ عاد الدين، ثقة المحدثين، عمة المؤرخين علم المفسرين".

وقال ابن حجر: "لازن المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال وصاحبه على ابنه، وأخذ عن ابن تيمية ففتين برهن وامتحن بسمه، وكان كثير الاستحضار حسن المفاهية، سارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته - ثم قال: ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العواقل، فقيه العلم من النازل، ونحو ذلك من فقههم، وإنما هو من محدثي الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح. ولله فيه فوائد.

وقال السبتي في "طبقات الحفاظ": "له التفسير الذي لم يؤلف على نفسه مثله"، كما نقل السبتي أيضا في الطبقات قول الحافظ ابن حجر أنه لم يكن على طريقته المحدثين في تحصيل العواقل وفيدي العاليم من النازل. الذا، ثم تفبه بتقوله: "العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعلله، واختلف طرقه ورحله جرحوا وتعديلا، أما العاليم والنازل ونحو ذلك فهو من الفضائل، لا من الأصول المهمة"، فإذا حق وصدق.

وقال العلماء العلامة: "كان قدوة العلماء والحفظ، وعمدة أهل المعرفة والعلم، وعمد وهو وضع وصنف ودرس وحدث وألف وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ وانتشار بالضبط والتحرير وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير، وله مصنفات عديدة مفيدة".
وقال ابن الآداب الحنبلي المتوفي سنة 1089 هـ: "كان كثير الاستحضار قليل النسب، جيد الفهم، يشارك في العربية، وينظم نظما وسطا، لا يذكر له إلا القليل من النظم مثل قوله:

"مرنا الأيام تسوى واما نسائر إلى الآجال والعرين تنظر فلا عائد ذلك الشباب الذي مضى ولا زائل هذا الشبيب المدرك"

وقال الشوكانى في "البدر الطالع" في ترجمة الحافظ ابن كثير: "عهد الدين اساعيل بن عمر، برع في الفقه والتفصير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل، وأفتقى ودرس، وله تصنيف مفيدة".

قال الشنخى أحمد شاكر بعدما ذكر ما جاء في "البداية والنهاية": من أن البترك بشارة الملقب ميخائيل استناد الحافظ ابن كثير في بعض عقائد طوائف النصارى الثلاث الملكية، والعقوبية، والنسطورية.

قال: "ولا يعجب القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد ضرياتهم - استغفر الله - بل أنه يذكر عن ذلك البترك ميخائيل الذي تكلم معه أنه يفهم بعض النوى. لأن ابن كثير من أعرض العلماء اطلاعا على أحوال أهل الملل والنحل، وخاصة مذاهب المسلمين، كما يدل عليه كلامه في مواضع كبيرة من التفسير والتاريخ، بل يكفي في الدلالة على سعة الاطلاع في ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي ألف موسوعته الفنية في ذلك "الجواب الصحيح من بلد دين المسيح" وهو مطلع معروف".

وقال أيضا: "ولم يكن من بخسدع في الفنون التي ظاهرها قصد الاستفادة، ووراءها ألاعب سماوية أو أغراض شخصية غير سليمة، وإن كان المستفيى من الأمور، ومن يختص بأسه "ثم ذكر ما جاء في تاريخه البداية والنهاية في حوارته سنة 762 هـ من قوله: وجانتنى فيها صورها: مانقول السادة الغالب في ملك إشتري علوي فأحسن إليه وأعطيه وقده، ثم ان وجب على سمه نفسه، وأخذ ماله ومنع ورتبته منه، وتصرف في الملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليدم عليه ليقتله، فهل له الامتثال منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهدا؟ وهل بناة الساعى في خصائص حق ورثة الملك المقتول من الفضائل والمال؟ أفنونا مأجورين "ثم قال أحمد شاكر تخفيفا على هذا: "فهذا استفتاء صغير في صورة نوحتي بالجواب، وباطنه أن ذلك الأمير السائل يريد أن يمنح على الملك الذي دعاه"
للحضور عنه ويريد أن يثير فتنة وقنالا على صاحب الأمر، لعله يصل إلى ما وصل إليه ذلك من الملك، كعادة الأمراء من الماليك في ذلك العهد، ولكن ابن كثير تجيه جوابا حكيا يكشف عن بعض مقصده، وستمن جوابه النصيحة الواجبة في مثل هذه الحال فيقول:
فقال للذي جاء إلى سماه من جهة الأمير: إن كان مراده خلافا لما فيها بيته وبين الله تعالى، فهو أعظم بينبه في الذي يقصده، أو لا يسع في تحصيل حق معين، إذا ترتبت على ذلك مفسدة راجحة في ذلك، فؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقة، وإن كان مراده بهذا الاستغفار أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه فلابد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولا ثم بعد ذلك بقية المفتيين بطريقة.

وفاته

كان - رحمه الله - قد كف بصره في آخر عمره، ثم مات يوم الخميس منتصف شعبان، وقيل يوم الخميس السادس والعشرين منه سنة 774 هـ - عن أربع وسبعين سنة.
قال ابن ناصر الدين: وكانت له جنازة حافلة مشهورة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية، بقبة الصوفية خارج باب النصر من دمشق.

ولما مات رأى بعض طلبه يفوه:
لكن أتراك طلاب العلم تأسفوا وجاشوا بدموع لا بيد غزير
ولو مزجوا ماء الدماغ بالدماء لكان قليلاً فيه يابين كثير

آثاره العلمية

لقد خلف الحافظ ابن كثير - رحمه الله - للمكتبة الإسلامية نورة علمية كبيرة في شتي فنون المعرفة من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وغير ذلك. غير أن هذه النروء التي خلفها لم تصل كلها إلى المكتبة الإسلامية. بل أنه لم يصل إلا بعض منها، أما البعض الآخر، وهو القسم الأكبر منها فلم يهد إلى مكانه، وحرمته المكتبة الإسلامية. كأنا من بين القسم الموجود مؤلفات لازالت مخطوطة، وبحاجة إلى طباعة بعد دراسة وتحقيق، ومذكر ما توصلت

143 -
إليه من مؤلفاته وآثاراته، وغالبًا مفقودة كما أشرت، إما الذي وصل إليها فقط هو نسبة هذه المؤلفات إليه. إما عن طريق المؤرخين الذين ترجعوا للمؤلف - رحمه الله - وإما عن طريق إشارته في كتبه الموجودة إلى هذه المؤلفات. وقد أشار في تفسيره للقرآن العظيم إلى أغلبها، وفقاً على بيان هذه المؤلفات:

١- تفسير القرآن العظيم. وهذا تفسير غني عن التعريف، وهو من أفضل التفاسير وأهمها يلي وأصلها. يحتل المرتبة الثانية إن لم تكون الأولى بين كتب التفسير. فسر فيه المحفظ ابن كثير القرآن بالقرآن أولاً ما وجد إلى ذلك سبيلًا، ثم بالسنة الصحيحة المرموقة عن المصدر على الله عليه وسلم، ثم بالرواية عن الصحابة رضي الله عنهم، ثم بأقوال التابعين، وتفهيم لغة العرب. وهذه حق تعبير أحسن الطرق في تفسير القرآن الكريم.

وتأتي الكلام عن هذا التفسير، وطبعه ومختصراته ومنهج مؤلفه فيه، وميزاته، وأنه فيلم بعداً في العدد القادم من هذه المجلة القريمة إن شاء الله.

٢- التاريخ الكبير المسمى: "البداية والنهائي"، ويعتبر من أعظم المراجع التاريخية، ومن أدقها. قال ابن الجنيسي: "رثي التأريخ الذي فاق على سائر التأريخ، وهو عبارة تاريخي هذا الذي جمعه وردت عليه من غيره" وقال ابن تغري بردى: "هو في غابة الجودة".

وقد قسمه المحافظ ابن كثير إلى ثلاثة أقسام: الأول في بناء الخليفة وقصص الأنبياء، وأخبار الأئمة الماضية، وأخبار العرب، وأحداث الجاهلية قبل الإسلام، وقد استخدم هذا القسم على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المشهورة، وعلى من ندم الӨرة من نفاص المؤرخين، كالطبري والواقي، وغيرها من المؤرخين وأصحاب السيرة، مع مناقشة أسئلة الأحاديث والإشارات إلى بذلك يعرفه وبيان ووجه الدلالة منها.

والقسم الثاني: فيه ذكر أخبار الدولة الإسلامية، ابتداء بسيرته الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأيامه، وغزواته وجميع الوقائع في عهده - صلى الله عليه وسلم - إلى أن تلقى بالفرق الأعلى، ثم ذكر أخبار الخلافة الراشدة وأيامها ووقائعها، ثم أخبار الدولة الأموية، فالدولة العباسية وما بعدها إلى سقوط بغداد في أعيده النكاسة ١٥٦ هـ، ثم ما بعد ذلك من أخبار...
الماليك وغيرهم، إلى ما قبل وفاته - رحمه الله - بست سنوات تقريبا وذلك سنة 718 هـ،

وهذا القسم يمكن أن نسميه تاريخ الإسلام.

أما القسم الثالث: هو المسمى بالنهاية، فقد جمع فيه ما ورد من الأخبار في الفتن والملاحم، وأشراط الساعة وأحوال القيامة والآخرة، وصفحة الهيئة والتراث.

وقد رسم طريقه في هذا الكتاب في مقدمته، كما ذكر فيه حكم رواية الإسرائيليات، ويبين أنه لا ينقل في هذا التاريخ إلا ما أخذ به الشرع، بما كان مواقعاً لشعرنا، أو كان من القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، وهذا التاريخ مطبع ومداول في أربعة عشر مجلد، وهو يجعل في هذا التاريخ إلى كتابه في التفسير، كما يجعل في التفسير إلى هذا التاريخ، فلأدر أقام بتأليفها معًا؟ ألم أنه يجلب على ما كان بندوة أن يكون به؟ وهو ما جاء متأخرًا منهما سواء التاريخ أو التفسير، وقد تداولت المطبوع طبعه عدة مرات، فقد طبع بطبعة كردستان العالمية سنة 1348 هـ، كما قامت مطبعة السعادة بطبعه سنة 1351 هـ - 1932 م بتصحيح

عبد الحكيم سعد عطية القاهرة.

وقامت مكتبة النصر بالرياض بطبعه سنة 1962 م، ونشره دار الكتابة الإسلامية سنة 1389 هـ - 1969 م بتحقيق محمد الزيني القاهرة، كما قامت مكتبة الفلاح بالرياض بطبعه بطبعة جديدة ومنقحة كاملا تحقق ومراجعة وتعليق وتصحيح محمد عبد العزيز الديب. طبع مطبعة القاهرة الجديدة. وقد اقتصرت هذه الطبعات على ما يسمى (بالبداية) من هذا التاريخ، أما (النهاية) وهي في الفتن والملاحم، فلم تلت حظا من هذه الطبعات التي تناولت (البداية)، وقد قام بطبعها أيضا الشيخ محمد الزيني في مجلدين وعلق عليها.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الشيخ محمد فهم أبوعابية فام بشرها وعلق عليها تعليقات غير سليمة، فيها رد للأحاديث الثابتة، وتأويل لها وإسقاط لبعض النصوص.

3 - اختصار علم الحديث: وقد اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علم الحديث، وقد أضاف إليه فوائد كثيرة، ورتبه. وقد قام الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة بتصحيح هذا الكتاب، وطبع أول مرة بمكة المكرمة بالطبعة الماجدة سنة 1353 هـ، ثم قام الأستاذ أحمد شاكر - رحمه الله - بشرحه شرحًا متوسطًا، وطبع في مصر في شهر ذي القعدة سنة 1355 هـ، ثم
أعاد الأساتذة طبعته مرة أخرى، مع زيادات وتنقيح في النثر، في شهر ذي القعدة سنة 1370 هـ باسم "البائع المبتعث" شرح اختصار علم الحديث. وهذا الكتاب متدافل ومشهور.

4 - السيرة النبوية "مطولة"، أشارت الكتب التي ترجمت للحافظ ابن كثير وذكرت مؤلفاتها إلى أن من ضمن هذه المؤلفات كتابان في السيرة النبوية وهما: السيرة النبوية مطولة، والسيرة مختصرة.

وقد أشار إلى كتاب السيرة المطولة في تفسير سورة الجين، كما أشار إلى كتاب السيرة مختصرة وسياطًا في سورة الأحزاب، في ذكر قصة بنى قريظة، وتارة يشير إلى كتاب السيرة مطولة.

هذا وقد قام الأساتذة مصطفى عبدالله بمعاونة باستخلاص السيرة النبوية من التاريخ الكبير "البداية والنهج"، وقام بتحقيقها وطبعها على حدة في أربعة مجلدات بالقاهرة بطبعه عيسى الباهي الباهي سنة 1366 هـ.

وكما قام باستخلاص كتاب شهات الرسول، وحققه وطبعه في مجلد واحد بالقاهرة بطبعه عيسى الباهي الباهي سنة 1382 هـ/1967 م.

وقد قال في مقدمة كتاب قصة الأنبياء، الذي استخلصه أيضًا في مجلدين من هذا التاريخ: "تيننت من كلام ابن كثير في تفسيره، ومن كتب التراجم، أنه كان لابن كثير سيرة مطولة، ورجحت أنه ضمنها في كتابه "البداية والنهج" الذي ألفه في آخر عمره.

5 - أما كتاب السيرة مختصرة، فلعله ما يوجد مطبوعاً باسم "الفصول في اختصار سيرة الرسول"، وقد طبع في القاهرة بطبعه العلم بمصر سنة 1368 هـ، كما طبع في سنة 1385 هـ بتصحيح الشيخ محمد عبدالرازق حميزة باسم الطبعة الأولى وقد جاء في مقدمته قوله: "وهنا مشتملة على ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعدما يوبنا هذا، ما يسع حاجة ذوي الأرب إلـه، على سبيل الاقتصاد إن شاء الله تعالى وتلك الينب لسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في ذكر نسبه ومولده،
ونزول الوحي عليه، وحياته وأيامه، والأحداث التي لا تقاها في طريق دعوته، وخصائصه وصفاته، وما كان عليه — صلى الله عليه وسلم — من حسن المعاملة لربه، وأصحابه وغيرهم، وذكر بعض غزواته وحروبه، إلى آخر حياته — صلى الله عليه وسلم — ثم وفاته، ووفاته، وبعض من أحكام زواجه، قبل وفاته وبعدها... الكتاب يقع في "170" صفحة من القطع المتوسط.

وكل ما جاء في هذا الموضوع هو مما يتعلق بسيرته الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقط، دون زيادة على ذلك كما أشار الحافظ بالمقدمة إلى أن سيذكر فيه أيضا أيام الإسلام إلى يومه، فإما أن يكون الحافظ اقتصر على هذا القدر، وإما أنه لم يصل إليه إلا بعض هذه الكتاب.

6 - "جامع المسانيد والسنن الهادي لأقم سنن" وقد جمع فيه الحافظ ابن كثير بين مسند الإمام أحمد والبخاري وأبي بكر الموصلي والطبراني مع الكتب التي وردت في مقدمة هذا الكتاب، فقال: "جمع فيه من كتب الإسلام العصرية، في الأحاديث الوريدة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن ذلك الكتب التي هي الصحيح البخاري ومسلم، والسنن الأربعة لأبي داود، والترمذي، والنسائي، وأبو ماجة، ومن ذلك مسند الإمام أحمد، ومسلم أبي بكر البخاري، ومسلم المصلي أبو بكر البخاري، وصحب الله — فهذه عشرة كاملاً، أذكر في كتابي هذا جموع ما في هذه العشرة وربما زدت عليها من غيرها، وفلما يخرج عنها من الأحاديث مما يحتاج إليه في الدين. وهذه الكتب العشرة تنتمى على أربعة من مائة ألف حديث بالذكر، وفيها الصحيح البخاري ومسلم، والضعيف والمضروب.

وبعد هذا أخذ في التنازل على الإمام البخاري — ثم قال: "ولكن كل ما يدخل في مصنفه من هذه الأحاديث كما شرط في صحيحه من سفر النذير الذي ضاقت، وتبع مسلم بن الحجاج بعده في سفر نذكر، وبالغ في الناظرة والمجاج، ومع هذا يبقى عليه أحاديث أخرى لم يطلع عليها وهي على شرطه، كما ستراها في هذا الكتاب — إن شاء الله تعالى" — ثم قال: "وقد وضع كل حديث مما يتعلق بالأحكام والتفسير والتاريخ في كتابه الثلاثة، وله الحمد والمنة، وما فيه من هن شديد بينه، وموضوع تحرير ذلك، وتقديره، والتفسير عنه في كتاب الأحكام الكبير، وتمت كتابي هذا: "جامع المسانيد والسنن الهادي لأقم سنن" وهو المنسد الكبير وشرط فبه: أن أمرج كل صحابي له رواية عن النبي — صلى الله عليه وسلم — مرتبت على
التي يظهر أن الحافظ - رحمه الله - لم يتم هذا الكتاب والوجود منه مازال مخترعاً. يوجد منه في دور الكتب المصرية سبع مجلدات تحت رقم ١٨٤ في مكتبة الرياض السعودية صورة من هذه المجلدات تصوير دور الكتب المصرية لعام ١٣٧٧ هـ عن المخطوطة رقم ١٨٤ رقم التصوير ١١١ من ٢٣٢/ مقاس ١٩ × ٢٦ والوجود في المكتبة السعودية سبعة أجزاء في أربعة عشر مجلداً، رقم ١٠٢ إلى ١٠٨/١٨ وينقصها المجلد الثامن مع وجود رقم له. كما يوجد في المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الجزء الأول منه في ثلاثة مجلدات برقم ٤١٤.

٧ - «التكمل في معرفة الثقافة والضعاوء والمجاهل» جمع فيه «تهذيب الكمال» للزمّ يمين الاعتدال، للذهب في زيادات مفيدة في الجرح والتعديل، وقد أشار إليه في كتابه جامع المسانيد والسنن» وأنه في عدة عشرة مجلدات. قال: «وجعلته كالمقدمة لكتابي هذان» يشير إلى جامع المسانيد.

قال الحسيني في ذيل تذكرة المهاجُ: «وهو في خمس مجلدات» ووجد الجزء التاسع منه - وهو الأخير - في مجلدين كبيرين بدأ بالكتاب المصري تحت رقم ٢٦٢٧ ب.

٨ - «مسند الشيخين»: أبي بكر وعمر - وفيه - كَا قال ابن كثير في «السيرة النبوية»: ذكر كيفية إسلام أبي بكر، وأورد فضائله وشجاعته، وأتبع ذلك بسيرة الفاروق - رضي الله عنه وأورد ما رواه كل منها عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث وما روى عنه من الآثار والأحكام والفتاوٍ، فبلغ ذلك ثلاثة مجلدات ولهما المدة والملة.

يُشير إليه في التفسير، تارة إلى مسندر آبي بكر، تارة إلى سيرة عمر، تارة إلى مسندر الشيخين آبي بكر وعمر.

٩ - «الجهاد في طلب الجهاد»: وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: أنه كتبه تلميذ لأمر الوالي نائب السلطان من الناشج المحيروسة. ذكر في أوله عددًا من الآيات القرآنية، حول موضوع الجهاد والقتال في سبيل الله، ثم أتبع ذلك بذكر عدد من الأحاديث في الجهاد والمرابطة في
سبيل الله، ثم عقب ذلك بفصل ذكر فيه هجوم الأفناج على الإسكندرية سنة 277 هـ وما عانوه فيها من الفساد، حتى أقبلت ربات الإسلام، وفر جيشهم هارباً، ثم انتقل إلى ذكر طردهم لطوالس أيضا سنة 279 هـ وافتدادهم فيها، إلى أن أخرجهم منها جيش المسلمين، فولوا هاربين وخرجوا منها صاعرين، ثم عقد فصلا آخر ذكر فيه منازلتهم لمدينة "إياس" وما وقع بينهم وبين المسلمين من مناورات، انتهت بانتصار المسلمين عليهم، ورجوعهم خاطئين خاسرين، ثم عقد فصلا ثانيا في ذكر بعض الوقائع الإسلامية في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلافة الراشدين، والدولة الأموية، والفاطمية، والأموية، والمالم بك البحرية، وكان هدفه في ذلك تعريض همم المسلمين للتضحية والإقدام في الدفاع عن الإسلام، ثم ذكر أن معظم قصد الأفناج أخذ بيت المقدس من أيدي المسلمين، وأنه لا سبيل لهم إلى ذلك.

هذا الكتاب مطبوع، يقع في "32" صفحة من القطع المتوسط. نشرته للمرة الأولى جمعية النشر والتأليف الأزهرية بالقاهرة لعام 1347 هـ.

10 - "طباقات التناقض" في التراجم ومعه كتاب "النفيس" في مناقب الإمام محمد بن ادريس الشافعي.

11 - "اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن" للبهبهاني ذكره في مقدمه اختصار علم الحديث.

12 - كتاب "المقدمات" وله في المصطلح ذكره في التفسير وفي اختصار مقدمة ابن الصلاح وأ حال عليه.

13 - "ارشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبئ"، في فروع التناقض، وهو مخطوط بتركيا، في مكتبة فيض الله تحت رقم 783 وصورة منها بالجامعة العربية بالقاهرة.

14 - "إباح الطالب بعرفة أحديث - خصص ابن الحجاب" في الأصول.

15 - "شرح صحيح البخاري" شرع فيه ولم يكمله كما ذكر ذلك ابن حجر، وقد أشار وأحال إليه مرايا في تفسيره، وقد وصل إليه إلى كتاب العلم حسب اشاراته في التفسير.

- 149 -
16 - "كتاب الأحكام الكبیر": لم يكمله وقد وصل فيه إلى الحج، أشار إليه في مواضيع كثيرة في تفسيره، ويغذى من كلامه في الجزء الأول من الفصل ص 549 أنه ألغى بعد التفسير أو معه، حيث قال: "ولنحرره في كتاب الأحكام الكبیر - إن شاء الله وبه النقاء" كما أشار إليه في اختصر علم الحديث.

17 - "الآداب والأحكام المتعلقة بدخول الحج": وهو رسالة صغيرة، ومشروع أحكام دخول الحج، وأقوال العلماء في ذلك، والأحاديث والآثار الواردة في ذلك.

18 - "مولد الرسول صلى الله عليه وسلم"، مطبوع بتقديم الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت دار الكتاب الجديد 1977، وقد ذكر ابن كثير في مقدمته: أنه ألغى هذا الكتاب يرسم أحد المؤذنين في الجامع المظفر في دمشق، وقد أوضح ابن كثير ما سيذكره في هذا الكتاب حيث قال: هذا ذكرتني من ذكر الأحاديث والآثار المتعلقة بمولد رسول الله صلى الله عليه وسلم - المفقولة المقدبة عند الحفاظ المتقنيين، والأئمة النافدين. هذا وقد نقل فيه: مولد الرسول ونسبه، والاعلامات التي ظهرت أثناء حمله، كما تكلم عن حفر ببر زمزم، وعن نذر عباد المطلب ذبح ابنه، وصفة مولدته صلى الله عليه وسلم - وأسسه ورضاعه وصفاته وشئانه وأخلاقه وغير ذلك. يقع الكتاب في "545" صفحة تقريباً.

19 - "شرح قطعة من "التنبيه" للإمام أبي اسحاق الشيرازي".

20 - "كتاب فضائل القرآن" طبع بمصر سنة 1347هـ - أشرف على تصحیحه وعلق عليه بعض الفقهاء السيد محمد رشيد رضا، وهو الذي ألغي في التفسير، عندما قال بطبعه مع تفسیر البغوية، وألقي كتب الفضائل بالجلد التاسع الأخير منه، واعتمدت ذلك المطبع في بعد فأصبح ذيلا للفسر.

وقد كان جمله بعد التفسير هو هدف الحافظ ابن كثير، حيث وضعه افتراض بالإمام البخاري في جملة فضل القرآن بعد التفسير، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: "ذكر
البخاري - رحمه الله - كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير، لأن التفسير أعلم فلهذا
بدأه، فجرينا على منواله وستنده مقتديين به.

وقد ذكر المحقق في كتابه هذا ما ورد في كتاب البخاري "فضائل القرآن" من الأحاديث
والآثار سواء أحديت فضائل السور فقد ذكرها عند سورها في التفسير، ولم يذكرها في كتابه
هذا.

وقد أضاف بعض الزوايا على ماجاء في كتاب البخاري، وجعلها في آخر الكتاب. وقد
اهتم بتخريج الأحاديث، وبيان مناسبة الحديث للباب الذي ذكر فيه، وبيان معناه مع
الاستشهاد على ذلك بالأيات والأحاديث المناسبة، وبيان ما يؤخذ منه من فوائد متتالية، وسندا.

وهناك له كثير من الأجزاء والرسائل، غالبها مما أشار إليه في التفسير وغيره.

1 - كتاب الصوب المفرد.
2 - جزء جميع في فضائل يم عرفة.
3 - جزء جميع وأفرده في حكم التنسيمة، وحكم تركها والكلام فيها.
4 - جزء جميع وأفرده في الأحاديث في بناء المساجد، واحترامها، وتوفرها، وتطبيقها، وتبخيرها.
5 - جزء جميع وأفرده في الأحاديث في كفارة المجالس.
6 - جزء جميع وأفرده في الأحاديث في أن المطلع من الجن، والإنس منباث، وأن العناصي
معاقي.
7 - تفصيل مقدمة جميع، من كتاب "الثقة" لأبي عمر بن عبدالمرو، من كتاب
"القضية والأمم، في معرفة أنساب العرب والعجم".
8 - كتاب "صفة الجنة".
9 - كتاب "أحاديث الأصول".
10 - جزء في ذكر المهى المنظور.
11 - جزء في رد كتاب أظهره اليوهود.
12 - جزء في الصلاة الوسطى.
13 - جزء في نفح المستنوية.
14 - جزء في هل يسمى الأخوان أخوة.

- 151 -
15 - جزء أفرد على حديث الكلام على الحديث الوارد في أن السجح كتب لنبي الله صلى الله عليه وسلم.

16 - جزء في الأحاديث الواردة في قول الكلاب.

17 - جزء جمع في سنود الحديث الطويل في الصور.

وهناك كتب جردت واستخلصت من بعض مؤلفات ابن كثير وهي:

1 - «سيرة النبي»: وقد استخلصها الاستاذ مصطفى عبدالواحد من «البداية والنهاية» وهي في أربعة مجلدات.

2 - قصص الأنبياء استخلصه أيضا الاستاذ مصطفى عبدالواحد من نفس كتاب «البداية والنهاية» في مجلدين نشرته دار الكتب الحديثة سنة 1388 هـ/1968 م.

3 - كتاب «شبهات المسال» في مجلد واحد، وهو مختصر من السيرة، تحقيق مصطفى عبدالواحد وقد سبقت الإشارة إلى هذه الثلاثة.

4 - «سيرة عمر بن عبد العزيز» استخرجها الدكتور أحمد الشرباشي.

5 - استشهاد الحسين قرأه وقدم له واستخرجه محمد جبل غازى.

6 - مورد من الرواية في «البداية والنهاية» وهو كتاب جمع فيه المحفظ ابن حجر الصقلي موارد من الأحاديث والآثار في هذا الكتاب، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية وصورة منها بجامعة الدول العربية تحت رقم 377. وهذه الكتب السنة كلها استخلصت واستخرجت من تأليفه الكبير «البداية والنهاية».

7 - كتاب الإسراء والعراج» من تفسير المحفظ ابن كثير، جرد ورتبه، وأضاف إليه إساعيل الأنصاري نشر مكتبة الرياض الحديثة سنة 1393 هـ.

وأما يلاحظ القارئ، عند استعراض هذة المؤلفات أن المحفظ ابن كثير رحمه الله أجاد في العلم الإسلامي كله، من تفسير وحديث وأحكام وتاريخ وأصول وعقائد.

وهذا نتاج حصوله العلمية التي استفادها من مشاهير العلماء في عصره كأبو ابن تيمية وابن القيم والمزى والذهبي وغيرهم.

لكن غلبة الحديث على ثقافته جعلت أكثر مؤلفاته في الحديث وعلومه، وأنا لأسف حبثا.
نبحت عن أكثر هذه المؤلفات فلا نكاد نجدها أو نقرأ عليها. إضافة إلى أن أكثر الوجود منها مازال مخطوطاً، لايتم توزيعه، وما طبع منها طبع بصورة غير لائقة، بقصد التجارة والاستغلال، لا المنفة العلمية.

إذا لنسأل الله - العلي القدير - أن يقيس مؤلفات هذا الإمام العظيم من بين علماء المسلمين من يبحث عنها ويدعوها عنابة جيدة، تحقيقاً وطناعة، لتؤخذ مكانها في المكتبة الإسلامية. كأني أدعو الجامعات الإسلامية ومن بينها جامعة الإمام محمد بن سعود إلى الاهتمام بجمع تراث هذا الإمام العظيم، وحفظه على البيئة الباقية منه.

والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وأله وصحب أجمعين.
مراجع البحث

1 - تفسير القرآن العظيم لابن كثير
2 - البداية والنهبة لابن كثير
3 - ذكرى الحفاظ للذهبي
4 - ذيل ذكرى الحفاظ للحسيني
5 - الدرر الكامنة
6 - طبقات الحفاظ للسيطي
7 - شذرات الذهب
8 - إناء الفجر في أبناء العمر
9 - الرمل الوافر لابن ناصر الدين
10 - "النهر الطالع" للشوكاني
11 - تاريخ أداب اللغة
12 - مقدمة عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر

*****

- ١٥٤-